بعد ثلاث سنوات

منذ اللحظة التي تسلّمتُ فيها رئاسة الوزراء في العام ١٩٩٨، صوّر الرئيس رفيق الحريري للناس أنني حللتُ في المقعد الذي كان يعتقد أنّه مخصص أو مكتوب له، وهو المقعد الذي كان يريده لنفسه. فشنّ عليّ حملة شعواء لا تبقي ولا تذر، حتى آلت إلى سقوطي في الانتخابات النيابية في العام ٢٠٠٠ وأنا على رأس الحكومة. وقد وظّف في تلك الحملة إمكاناته المادية والإعلامية الهائلة، فانطلت الافتراءات والأضاليل التي أطلقها ضدي بلا رحمة ولا هوادة على كثير من الناس الطيبين. وكان محور تلك الهجمة أكذوبة أنني فرّطت في مقام رئاسة الوزراء. بذلك خلع على حملته المسعورة ضدّي، ويا للمفارقة، لا بل يا للبراعة، رداءً مذهبياً. كانت حجته في الهجوم عليّ أقوى كثيراً من حجتي في الدفاع عن نفسي، إذ هو تسلّح بقوة المال والإعلام التي لا تقاوم في إقناع قومي الأعزّاء على نفسي بالانقلاب عليّ، بينما كان سلاحي في الدفاع عن نفسي لساني ومنطقي ولا غير.

واليوم، بعد ثلاث سنوات، من حقي أن أُسائل الرئيس الحريري: ماذا حل بمقام رئاسة الوزراء في عهدك؟ هل هو محفوظ ومصون؟

إنك رئيس لمجلس الوزراء ولم ترأس جلسة واحدة لمجلس الوزراء. إنك أنت المسؤول الأول عن السلطة الإجرائية دستورياً، فهل أنت راضٍ عن أداء هذه السلطة؟

ماذا تقول عن الأزمة المعيشية الخانقة التي تطوق الناس الطيبين؟ ماذا تقول عن البطالة المستفحلة وهجرة الشباب المتفاقمة؟ لا بل ماذا تقول عن

الفساد المستشري في أوصال الدولة والمجتمع على كل صعيد، كما لم يكن الحال في أي وقت مضى في تاريخ هذا الوطن؟

والناس لا يفوتها إسهامك المباشر في إشاعة هذه الحال المزرية، إذ لم تتورع عن تسخير إمكاناتك المادية الأسطورية في خدمة مآربك السياسية الآنيّة، فكادت الساحة السياسية تنقلب سوق نخاسة، سوقاً للعبيد، تُشرى فيها وتباع النفوس والضمائر والآراء والمواقف لا بل والأقلام والأصوات يوم الانتخاب.

الله تعالى أوصى بالبذل في سبيل الفقراء والمحتاجين، ولكنه اشترط أن يكون ذلك لوجه الله، نجدةً للمساكين، من دون أن يكون لك من ورائها مأرب أو مصلحة شخصية.

ماذا حلّ بمقام رئاسة الوزراء وأنت، كما يبدو لكل ذي عين ترى، لا تؤدي دور الشريك الفاعل في الحكم من قريب أو بعيد، اللهم إلا في المواكب الطنّانة واستنفار كل أسباب التبجيل والتفخيم والتعظيم. ولا يجديك نفعاً أن تلجأ إلى سياسة المناكفة. فهذا الأسلوب لا يؤتي ثماراً، ناهيك بأنه لم يعد ينطلي على أحد ممن تعوّدت أن تبهر. كما لم يعد ينبهر الناس بقدرتك على المثول إلى جانب هذا أو ذاك من كبار العالم من أجل صورة أو خبر.

الواضح لكل ذي عين ترى أن قرار السلطة ليس في يدك. حتى وزير المال، وهو المحسوب عليك قلباً وقالباً، يصرّح منذ أيام أنه لم يطلعك على مشروع الموازنة للعام ٢٠٠٤ قبل إعلانه. أهكذا تُساس الدولة؟ أهكذا تمارس المسؤولية؟ أهكذا تورَد الإبل؟

هل حفظتَ لمقام رئاسة الوزراء مكانته عندما قلت إن وجودك في رئاسة الوزراء هو بإرادة سورية وستعود إلى بيتك عندما تشاء سوريا؟

لقد جَنَت يداك عليّ زوراً وبهتاناً، وكان لك آنذاك كل ما تريد بفعل ما تملك من إمكانات فائقة. ولكن، بوجود الله الحليم الحكيم، تبقى الغلبة في نهاية المطاف للحق والحقيقة ويبقى سلاح الموقف هو السلاح الأمضى.

أقول ذلك من موقع القوة. فقد تعلمتُ من التجربة أن المسؤول يبقى قوياً إلى أن يطلب أمراً لنفسه. إن من يطلب أمراً لنفسه كان له ثمن، ثمنه هو ما يطلب. وأنا اليوم لا أطلب أمراً لنفسي، لا مقعداً ولا كرسيّاً ولا مقاماً، لا

بل ولا مالاً ولا جاهاً، مكتفياً براحة الضمير والسعي إلى خدمة وطني وأمتي محتسباً، بمنأى عن أي مأرب شخصي.

أما أنت فإنك تطلب أموراً لنفسك، أولها البقاء في سدة الرئاسة بأي ثمن. وهذا ضعفك.

إنك تستمرئ أن تتصرف تصرف الملوك مع الناس، تماماً كما كان آخرون يتصرفون معك في غابر الأيام.

سامحك الله، وأنعم عليك بالتوفيق والسؤدد.

أقول كل هذا مع علمي بأن بعض وسائل الإعلام لن تتجرأ على نقل كل كلامي إلاّ مجتزءاً.

[بيروت في ١٥/ ١٠/ ٢٠٠٣]